اهداءات ٢٠٠٢

أ/ محمد مصطفى بيومى
القاهرة

دراسات في الإسلام
يصدرها
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
القاهرة

أدب القرآن

بقلم
الأستاذ فؤاد شاكر

يشرف على إصدارها
محمد توفيق عويضة

بسم الله الرحمن الرحيم

« مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ »

صدق الله العظيم

تمهيد

أسباب تأليف هذا الكتاب — اتساع مذاهب البحث — أدب العلم وأدب النفس — الأحكام التشريعية فى القرآن — اغفال المسلمين لمصدر سعادتهم — القرآن مصدر سعادة البشر — تعريف السعادة والطريق الموصل اليها — آداب المسلمين فى حياتهم اليومية من القرآن — معاملاتهم الحقوقية .

ظن بعض أصدقائى ، الذين سمعوا بعنوان هذا الكتاب ، قبل قراءة موضوعه — أدب القرآن — اننى عنيت ببحث أدب العلم ، لا أدب النفس ، اذ من المفهوم أن كلمة الأدب تؤدى هذين المعنيين ، كالتعبير الذى اصطلح عليه ، فادب العلم ،الذى هو علم الأدب ، غير أدب النفس ، الذى هو حلية النفس وطابعها فى مكارم الأخلاق ، وظنوا أننى عنيت ببحث أدب القرآن من ناحية العلوم الأدبية وفنونها فتعرضت لما فى القرآن من بلاغة وفصاحة ، ولغة ونحو ، وصرف وقواعد وما الى ذلك من ضروب البيان وأبوابه الواسعة ، فلما سئلت فى ذلك أجبت : بأن أدب

القرآن من هذه الناحية ، انما هو موضوع يهم الخاصة من رجال العلم والفضل ، والمتعلقين بالبحث والتمحيص ، للوقوف على ما فى القرآن الكريم من بلاغة وفصاحة وبيان ، وما ورد فيه من غريب اللغة ومفرداتها وقواعدها ، فهو يهم من هذه الناحية طائفة خاصة من طبقات الناس بل من صفوة طبقاتهم المتعلمة التى تفهم معنى هذه الابحاث حق فهمها ، فالبحث اذا فى الموضوع من هذه الناحية المحدودة هو فى نظرى بحث محدود الفائدة بحدود قرائه وقلتهم فى كل أمة من الأمم العربية والاسلامية لانه من المفهوم أنه ليس كل الناس وليس سواد الشعوب وجمهرة الأمم من التعليم العالى بالدرجة التى تخول لهم فهم هذه الابحاث حق فهمها .

وبالتالى ، فان فصاحة القرآن الكريم وبلاغته ، وما فيه من ضروب البيان ، كل ذلك شىء تناقلته الالسنة وحفلت به المؤلفات وحفيت فيه أقلام الكتاب من فطاحل العلماء ، منذ العصر الذى نزل فيه القرآن الى اليوم ، فى كل أمة وكل زمان . فالكتابة فيه ليست بجديدة فى موضوعها ، وموضوعها ليس بمجهول من أولئك الجلة من العلماء المبرزين ، والفطاحل المؤلفين ، الذين عالجوا هذه الابحاث فى مؤلفات ضخمة حفلت بها المكاتب العربية وعرفت لجميع المتأدبين وتداولتها أيديهم وأبصارهم وأذهانهم .

وقد خلصت من هـذا الى تقرير : أن النـاحية العلمية فى القـرآن ، انما هى ناحيـة لا يفهمها — حق فهمها — الا تلك الطائفة الجليلة من العلماء • من الذين يؤهلهم تعليمهم ومؤهلاتهم العلمية والذهنية الى استساغة معانيها وقواعدها •

أما الناحية الأخرى التى قصدت اليها من تأليف هذا الكتاب، فهى الناحية الأوسع انتشارا ، والتى يستطيع كل فرد متعـلم تعليما عاديا أن يفهمها ، والتى هى تهم كل فرد من أبناء البشر ، لأنها الناحية المتعلقة بالانسان فى حياته اليومية ، فيما بينه وبين ربه ، وفيما بينه وبين والديه اللذين هما أقرب الناس اليـه ، وفيما بينه وبين ذوى قرباه وذوى رحمه ، وفيما بينه وبين الناس بصفة عامة ، وما يدخل فى ذلك من حقوق ومعاملات ، وآداب خاصة وعامة ، وشئون اجتماعية وأخلاقية ، وعمرانية واقتصادية وآداب الانسان فى معاشرة أهله ومعاشرة غيرهم من النـاس ممن تضطره ظروف الحياة وملابساتها الى الاحتـكاك بهم فى غدواته وروحاته •

بل لم يقتصر القرآن الـكريم على ذلك ، فتعـرض لأدق شئون الانسان فى حياته الخاصة ، كآداب الاستئذان فى الأسرة، وآداب الاسـتئذان فى دخول البيـوت ، وآداب التنفس فى المجالس ، وما الى ذلك من الشئون الخاصة المتعلقة بأخـلاق الناس وآدابهم ، مما يجده القارىء مفصلا فى كتابنا هذا •

والقرآن الكريم أوسع من أن يحده بيان أو مؤلف أومؤلف ، مهما أتسعت الصفحات وسمت المدارك وتنبهت العقول • وقد حفل بجميع شئون الخلق فى عباداتهم ، وفى معاملاتهم وفى جميع أحوالهم الخاصة والعامة كما أسلفت القول ، وبدا لى أن فى القرآن من هذه المواضيع جميعا ما لو حاولت تفصيله أو التعرض له بالاشارة لاستوعب منى مجلدات ضخمة وزمنا لا يحيط به العمر المحدود • علاوة على أن ذلك التفصيل بجملته يكون موضوعا عاما يخرج بى عن نطاق الفكرة التى حددتها فى تأليف هذا الكتاب ، أو على الأصح ، الفكرة التى بعثتنى على تأليفه بهذه الصورة •

فالأمة الاسلامية الصحيحة ، انما قامت فى حياتها العامة والخاصة ، على أساس القرآن الذى هو هاديها المرشد الى كل شأن جليل أو ضئيل من شئون حياتها • وقد كان الأمر كذلك فى فجر الاسلام وضحاه ، ونقول — فى فجر الاسلام وضحاه لأن كثيرا من الأمم الاسلامية تحللت بعض التحلل من بعض تعاليم القرآن والاسلام ومبادئها وأخذوا يعملون ويسيرون على قواعد عرفية وعقلية زعموا أنها ملائمة لعصورهم الحاضرة وما اقتضته من تطور ، وهم فى ذلك جد واهمين ، ففى فجر الاسلام وضحاه ، أى فى زمن الرسالة المحمدية وعهد الخلفاء الراشدين والصحابة ، كان القرآن هو القاموس الوحيد لمعاجم هذه الحياة ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم هو مرجعهم فيه مدة

حياته . ثم كانت أحاديثه الصحيحة الثابتة ، مرجعهم بعد وفاته فى أنظمة حياتهم ومعاملاتهم وشؤونهم من عامة وخاصة .

فالفكرة التى رمى اليها مؤلف هذا الكتاب ، هى انه نظر الى القرآن الكريم نظرة اجلال واكبار واحترام ، بعد أن اشربت نفسه حب القرآن وبعد أن وفقه الله الى دراسته دراسة عميقة ، والوقوف على كثير من معانيه السامية الحكيمة . وقد رأى المؤلف أن فى القرآن الكريم من شتى المواضيع ما أصبح دستورا عاما للامم الاسلامية وأصبح نظاما حكوميا دينا ودنيا يجب أن تسير بموجبه الأمم الاسلامية وتطبقه الحكومات التى لها الولاية على المسلمين ، كأحكام القصاص واقامة حدود الله وتوزيع العدل بين الناس بواسطة الهيئات الحاكمة وشؤون التوريث وأمور النكاح وما الى ذلك من الأمور التى يرجع أمر تنفيذها الى السلطات الحاكمة . فلم يتعرض المؤلف لهذه الناحية من نواحى القرآن على اعتبار انها ناحية يرجع أمر تنفيذها عمليا الى الهيئات الحاكمة كما قلنا وهى مسائل تشريعية لم يعد أمرها خافيا على أحد من الناس لانها من قواعد دينهم الذى يسيرون عليه ، سواء عملوا بها أو لم يعملوا .

ورأى المؤلف فى القرآن ناحية أخرى هى ناحية الفرائض والعبادات والأمور المتعلقة بطاعة العبد لربه كالصلاة والزكاة والصوم والحج ، وهذه الناحية لم يتعرض لها المؤلف لأن ماكتب فى موضوعها قديما وحديثا لم يترك مجالا لكاتب أو لقائل ،

ولأن كل مسلم أصبح بفطرته أو بأبسط ما يتلقنه من القواعدأو المعلومات ، ملما بأركان دينه عارفا لها سواء عمل بها أو لم يعمل.

وانما الرأى الذى أخذ على المؤلف مذاهب تفكيره ، هو انه استشف من أسرار القرآن ، الناحية التى يقرأها الناس ولا يلقون بالهم اليها ، وهى الناحية التى يمكن الاستفادة منهااستفادة عملية فى كل شئون الناس فى حياتهم اليومية ،وأعنىبها الناحية التى تتعلق بحياة الناس فى أعمالهم وعلاقاتهم ببعضهم وآدابهم العامة والخاصة ، ومكارم الأخلاق ومعاملاتهم الأدبية والمادية وما يتعلق بالمحافظة على صحتهم وعلى ثروتهم وعلى سعادة الاسرة وعلاقات الآباء بالأبناء وعلاقاتهم بذوى قرباهم وتبادل العطف والمحبة والمواساة بين بعضهم البعض ورفع مستوى الأخلاق وترقية حالتهم الاجتماعية والخلقية وكل ما يؤدى الى سعادتهم وهنائهم ورفاهيتهم .

هذه الناحية الاجتماعية الأخلاقية العمرانية ، التى هىأساس الحياة اليومية لكل الناس ، هى الناحية التى ملكت مذاهب الرأى على المؤلف ، بعد أن استشف من قواعدها المرسومة فى القرآن ما ينهض بها الى أرفع أوج يشهد بعظمة الدين الاسلامى وينطق بعظمة القرآن وبأنه كتاب منزل من لدن الحكيمالخبير، الذى هو عالم بسر خلقه ، وبسر طريق السعادة التى هم عنها فى ضلال مبين ، وقد استهوت المؤلف هذه الفكرة ، فعمل جاهدا على اخراجها الى حيز الوجود ، وذلك باقتفاء الآيات الحكيمة

التى حفل بها القرآن فى هذه المعانى ، وتقديمها الى القراء فى ثوب من البساطة يسهل معه فهمها ، وفهم الاغراض التى رمت اليه من اسعاد البشر ، فهو سبحانه وتعالى فى غنى عن عبـاده وعن عبادتهم والذبائح التى تذبح تقربا اليه لن يناله دماؤها ولا لحومها وانما هى مبادىء سامية ترمى الى تقرير أشرف الأغراض وأنبل الغايات .

وقد اتسعت مذاهب البحث وتشعبت مسالكه عـلى مؤلف هذا الكتاب عندما حاول اخراج فكرته من حيز التفكير الى حيز التنفيذ لأن النظريات تختلف عن العمليـات ، اذ اجتمعت لديه طائفة من آى الذكر الحكيم فى هذه المواضيع وفى المواضـيع المتصلة بها ما لو أراد مجاراة رغبته الملحة فى تتبعها وتقصيها ، ثم تتبع شروعها وتقصيها ، لنفد العمر دون الوصول الى غايته ، لغزارة البحث وسعته ، وعمقه ، وهنا لم يجد بدا من الاقتصار على ما وصل اليه جهده المحدود الضئيل مقتنعا بالمسـاهمة فى الدعوة الى الله بما أداه من واجب فى دائرة الحـد الذى وفق اليه ، مواصلا البحث فى الموضوع الذى هو بسبيله على ماتتبع له الحياة من مدى ، سائلا الله أن يلهمه التوفيق فيما هو فيـه من مواصلة الجهد لاكمال تحقيق الفكرة التى يعمل لاتمامها فى كتاب آخر يتصل بموضوع هذا الكتاب .

وغاية ما أرجوه اذا ، هو أن أكون قد ساهمت فى الدعوة الى الله ، وانارة الطريق الى الحق ، وقيادة الناس الى سبيل سعادتهم

الدنيوية والدينية ، لاننى شديد الاعتقاد ، بأن الناس لو اتبعوا أوامر دينهم وأحكام قرآنهم ، وما جاءهم فيه من الحق ،لساروا على النهج المؤدى بهم الى السعادة الكاملة التى ينشدونها وهى بين أيديهم ، فقد طالما كتب كتاب الشرق والغرب ، وبحثوا طويلا ، ووضعوا أثمن الجوائز وأغلاها لمن يدلهم على السعادةولمن يعرفهم ما هى وأين طريقها • وقد كتبوا فى ذلك كثيرا وطويلا • وأكثر من خاض هذا الموضوع لم يوفق الى تعريف السعادة أو ما هو الطريق الموصل اليها •

أما تعريف السعادة فى رأى كاتب هذه السطور ، فهو أنها هى الحياة الطيبة المشمولة بهدوء البال فلا يكدر صفوها من الحوادث الانسانية مكدر ، كأن تكون متمتعا بالصحة الجيدة والمعيشة الهادئة آمنا من الخصومات بينك وبين غيرك من الناس على صلة طيبة بجميع من تحب ، حائزا لرضاء ربك وذويك فى وسطة من العيش • وهذه الامور لا يمكنك أن تتوفر على اقتنائها الا من طريق الدين ، وطريق الدين الذى نعنيه هو اطاعة أوامر ربك واتخاذ القرآن الكريم اماما لك ونبراسا تقتدى به وتهتدى بهداه ، فى كل ناحية من نواحى حياتك سواء العامة والخاصة وسواء الدينية منها أو الدنيوية ، فاذا انت فعلت ذلك بحق واخلاص ، واتبعت ما جاء فى القرآن بهذا الصدد ، أمكنك أن تصل الى طريق السعادة المنشودة وغيرك يتخبط فى طريقه ، يلتمس اليه النور فلا يعرف مصدره العظيم ، فكتاب أدب القرآن

اذا ، هو النبراس المضيء أمامك هذا الطريق ، بله نفسه الطريق المؤدى بك الى السعادة الحقيقية فى دنياك وآخرتك ، ولعلى حين أصف كتابى بهذا التعبير أكون قد مدحته فى نظر من يقرأون هذه الجملة ؛ وليس من المتعارف أو المتواضع عليه أن يمتدح مؤلف نتاج فكره ، ولكننى فى الواقع أمتدح كتابى . بملء ماضغى فخرا وبكل ما فى من قوة ، وأدعو الله أن يثنينى عليه كل المثوبة ، وأن يهدى به خلقا كثيرا . وذلك لسمو موضوعه وسمو فكرته ، وانه مستمد من كلام الله سبحانه وتعالى ومن تعاليم دينه الحنيف ، وأوامر قرآنه الكريم ، وحسبه انه « أدب القرآن » وكفى .

والله الموفق .

الباب الأول
في الشئون الأخلاقية

١ — النهى عن الظن السوء والغيبة

٢ — الأمر بالحسنى

٣ — تحريم السخرية والاستهزاء

٤ — النهى عن الغضب وما يجر اليه

٥ — مكارم الأخلاق

٦ — النهى عن شح النفس

النهى عن الظن السوء والغيبة

قال الله تعالى فى محكم تنزيله :

« يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه . واتقوا الله ان الله تواب رحيم » .

جاء فى تفسير هذه الآية ما يأتى :

يقول الله ناهيا عباده المؤمنين عن كثير من الظن وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس فى غير محله ، لأن بعض ذلك يكون اثما محضا ، فليتجنب كثير منه احتياطا وروى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب انه قال « ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن الا خيرا وانت تجد لها فى الخير محملا » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بالاسناد عن مالك عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة « اياكم والظن فان الظن أكذب الحديث و لاتجسسوا ولا تحسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولاتدابروا وكونوا عباداالله اخوانا » وقال الطبرانى باسناده عن حارثة بن النعمان قال : قالرسولالله صلىالله عليه وسلم « ثلاث لازمات لامتى : الطيرة والحسد وسوء الظن »

فقال رجل وما يذهبهن يارسول الله من هن فيه ، قال صلى الله عليه وسلم « اذا حسدت فاستغفر واذا ظننت فلا تحقق واذا تطيرت فامض » ، وقال سفيان الثورى عن راشد بن سعد عن معاوية قال سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول « انك ان اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم » (ولا تجسسوا) أى على بعضكم بعضا والتجسس غالبا يطلق فى الشر ومنه الجاسوس أما التحسس فيكون غالبا فى الخير كما قال عز وجل اخبارا عن يعقوب انه قال (يابنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه) وقد يستعمل كل منهما فى الشر كما ثبت فى الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ولا تجسسوا ولا تحسسوا .. الخ » والتجسس البحث عن الشىء والتحسس الاستماع الى حديث القوم وهم له كارهون .

وقوله تعالى « ولا يغتب بعضكم بعضا » فيه نهى عن الغيبة وقد فسرها الشارع كما جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود، قيل يارسول الله ما الغيبة ، قال (ذكرك أخاك بما يكره) قال أفرأيت ان كان فى أخى ما أقول قال صلى الله عليه وسلم (ان كان فيه ما تقول فقد اغتبته وان لم يكن فيه ما تقول فقد بهته) وجاء فى الاثر أن امرأة دخلت على عائشة فلما قامت لتخرج أشارت عائشة رضى الله عنها للنبى بيدها — أى أنها قصيرة — فقال النبى (اغتبتيها) والغيبة محرمة بالاجماع ولهذا شبهها الله تعالى بأكل لحم الميت وهذا من التنفير والتحذير منها كما